نظرات في الثقافة العرفانية – الطبعة الأولى

تحقيق: حسين الأكرف

خُلق الإنسان مفطورًا على حب المعرفة. بل لعل هذه السمة هي من خواصّ الإنسان المميّزة له عن سواه من الأنواع، فالإنسان لا يفتأ منذ مولده وحتى مماته يبحث في أسرار الوجود وخفاياه؛ وجوده، مصدر وجوده، غاية وجوده، نظام العللية، الكون من حوله، وغيرها كثير مما يحيط به ويشغل في كل يوم باله وفكره.

والإنسان في خضم ذلك كله يحتاج إلى منارات تنير درب جهله وتدله على مصدر المعرفة الأعظم الذي تشفي معرفته غليل الباحث وتروي عطش الجاهل، وإلا فإن الإنسان سيمضي في رحلة جهله تلك مقتحمًا أغوار جهل مركب، فيكون مصيره إما العودة منها لا يلوي على شيء إلا بؤسَ تجربة مريرة، أو تأبُّطَ ذلك الجهل وحمله سلاحًا يلوّح به كناطح صخرة ليوهنها.

وإنا قد لا نجانب الصواب إن قلنا إنّ أول باب من أبواب المعرفة التي يجب على الإنسان الوقوف عليه هو باب معرفة الله سبحانه، وهو الباب الذي سيُفتَح به – إن تسنّى للطارق أن ينفتح له – ألف ألف باب من أبواب المعرفة، إذ "ليس العلم [كما ورد عن الصادق (ع)] بالتعلّم، إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه". كما أنّ حريًّا في ظل هذا البحث التأكيد على أنّ السعي في سبيل الولوج في بحر هذه المعرفة مشروط بوجود المعلِّم العارف الذي يأخذ بيد طلّاب هذه المعرفة قدمًا، لأنّ هذا الطريق محفوف بأهوال لا يقوى الإنسان على موجهتها دون المرشد – كإبليس والنفس وحب الدنيا والعلوم المضلِّلة. وإن أفضل مرشد للإنسان في هذا المسعى هو كتاب الله ورسوله وعترة رسوله، منارات دروب البشرية الذين لن يضل من تمسك بهم.

ويجدر هنا الإلفات أيضًا إلى أنّ درب معرفة الله لم يخلُ يومًا من أولياء لله يسعون في سبيل معرفته والغوص في بحره اللامتناهي اصطُلح على الواصلين منهم، في الأدبيات الإسلامية، اسم "العرفاء"، كما أصبحت تعاليمهم التي بثّوها بحسب ما تسنّى لهم منضويةً تحت باب من أبواب العلوم اصطُلح عليه بـ"علم العرفان"، الذي توزّعت مطالبه بين مطالب معرفية بحتة سمّيت بـ"العرفان النظري"، كمعرفة الأسماء والصفات، ومعرفة أسفار السالكين، ومعنى مفهوم الولاية وغيرها، ومطالب توجيهية مسلكية سمّيت بـ"العرفان العملي"، كتوجيه العبد نحو ذكر معيّن يحاكي حاله، أو الكشف عن ورد من الأوراد المطلوبة في مقامات معينة، أو تحديد خطوات التوبة الحقيقية وغيرها. وأوّل الشقّين المذكورين – أي العرفان النظري – هو موضوع هذا الكتاب.

يتناول الكتاب القائم بين يدي القارئ جملةً من مطالب علم العرفان النظري المطروح بناءً على تعاليم أهل بيت العصمة (ع)، فيعرضها بلغة علمية رصينة ويوضح بعض مبهماتها بأسلوب على درجة من السهولة الممتنعة، فلا يصعب على القارئ تناول المطلب ولا ينتقص من قيمة البحث ومستوى لغته شيئًا، بالإضافة إلى تقديم إجابات علمية عن جملة من أبرز الإشكالات المطروحة حول هذا العلم وفيه، ليقدّم بذلك للقارئ وجبةً معرفيةً متكاملةً تغني المحتاج وتشبع المتعطش.

أمّا مؤلف هذا الكتاب فهو سماحة آية الله الشيخ عباس الكعبي حفظه الله، الذي تعاطى مطالب هذه العلوم ردحًا من الزمن وتلمّذ على أيدي نخبة أساتذة العرفان النظري كالإمام الخميني والعلامة الطبطبائي رحمهما الله، وكتابه هذا هو مجموعة دروس ألقاها في حوزة الإمام المجتبى (ع) في دولة الكويت واضطلع بتقريرها وضبطها سماحة الشيخ المجاهد حسين الأكرف، فجزاهما الله خير الجزاء على إنجاز هذا العمل المبارك.

إن **دار المعارف الحكمية** إنما ينشر هذا الكتاب القيّم لعلم القيّمين عليه بحاجة الساحة الفكرية اليوم إلى كتب مماثلة، وأبرز وجوه هذه الحاجة إنّما تتجلّى في مسألتين أساسيتين: (1) أن مطالب علم العرفان باتت اليوم تعرض وتنشر، في كل وسائل العرض المتاحة – كالكتب ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والإلكترونية –، دونما رقابة على مضمون ما يُعرض من أفكار يمكن أن يتلقفها غير المتخصّص ويتبناها على ما تحويه من الخطأ والضلال، فلا بد من وجود كتب دقيقة المحتوى سليمة المضامين؛ (2) عطش الشباب المسلم المثقف اليوم إلى مطالب هذه العلوم مع عجزه عن إمكان الخوض في أمّهات كتبها لصعوبة لغتها من جهة ورفعة مطالبها من جهة أخرى، فلا بد من وجود كتب تقدم هذه المطالب بلغة سيّالة لا تشقّ على غير المتخصّصين. والكتاب هذا يوفّر حلًّا لتينك المشكلتين.

وإن الدار لا يفوتها شكر الإخوة العلماء في **حوزة الإمام المجتبى (ع– (** أساتذةً وطلابًا – كما وسماحة آية الله الشيخ عباس الكعبي المؤلف، وسماحة الشيخ حسين الأكرف مقرر البحث الذي قدم في سبيل إنجاز الكتاب جهودًا حثيثةً نسأل الله أن يقبلها منه بحسن القبول، كما والإخوة في قسم التحرير في **معهد المعارف الحكمية** الذين أشرفوا على إتمام الطبعة وضبطها من كافة النواحي التحريرية واللغوية، فللجميع جزيل الشكر. سائلين المولى أن يحقق الكتاب غاياته المبتغاة له وأن يكون معينًا لكل مهتم على سير في درب معرفة الله.